

الأرشيف البرتغالي كمادة لتاريخ المجاعات والأوبئة في المغرب : وثائق القنصلية البرتغالية بطنجة نموذجاً

عثمان المنصوري

كلية الآداب، عين الشق، الدار البيضاء

لم يعد خافياً عن المهتمين من الباحثين، ما للوثائق الأجنبية من أهمية في توضيح العديد من الجوانب الخفية من تاريخ المغرب. وتهدف هذه المداخلة إلى التعريف بنوع من هذه الوثائق، وبما تحويه من معلومات متنوعة ومفيدة عن المجاعات والأوبئة، في فترة تاريخية تمتد من سنة 1790 إلى 1844. ويتعلق الأمر بأرشيف القنصلية البرتغالية بطنجة الذي يتضمن عدداً من المراسلات والتقارير والوثائق المرفقة التي كان القناصل البرتغاليون في هذه الفترة يبعثون بها إلى وزارة الخارجية البرتغالية أو غيرها من المصالح والإدارات البرتغالية عن المغرب وأحواله وما يطرأ فيه من أحداث. ومعلوم أن أسرة كولاصو (Colaço) احتكرت منصب القنصلية العامة بالمغرب لمدة طويلة، من نهاية القرن الثامن عشر إلى بداية القرن الحالي. وولد بعض أفرادها وعاشوا في طنجة، فتأتى لهم بذلك إطلاع واسع على أحوال المغرب ومعرفة كبيرة بأهله وعاداته، وكونوا علاقات وطيدة مع المغاربة بمختلف مشاربهم ومكاناتهم.

يتسم أرشيف القنصلية البرتغالية بطنجة بعدد من الخصائص والمميزات التي تعطي مصداقية كبيرة لما يتضمنه من معلومات وما يتطرق إليه من مواضيع. ويستطيع الباحث أن يتبين ذلك بكل وضوح عند الإطلاع عليه. ومن هذه المميزات الحياد والموضوعية اللذين يطبعان جل المراسلات، وخاصة تلك التي تتطرق لمواضيع لا تتضمن مصالح شخصية للقنصل، أو آراءه الخاصة في الدين والعادات المغربية. وبالنسبة لموضوعنا، فإن الدقة والموضوعية ضروريتان، لأن الدولة البرتغالية تحتاج إلى معرفة أحوال البلاد المناخية، وحالة المحاصيل الزراعية،

وأثمان المواد المنتجة، وكل ما يطرأ من أحداث سياسية من شأنها أن تؤثر سلباً أو إيجاباً على الإنتاج الفلاحي. كما تتضمن المراسلات القنصلية بعض الجوانب الغائبة في المصادر المغربية التي لا تتحدث مثلاً عن الاتفاقات المبرمة بين المغرب وبين غيره من الدول الأوروبية، وخصوصاً تلك المتعلقة بالتبادل التجاري للمواد الفلاحية والماشية. وتتسم هذه المراسلات أيضاً بالاستمرارية، فهي تمتد على فترة زمنية لا بأس بها، ونطلع فيها على تطور الأحداث، حيث ننتبع الجفاف من بدايته إلى نهايته، والأوبئة منذ ظهورها إلى حين القضاء عليها تماماً. ومما يعطي لهذه التقارير المزيد من المصداقية، كون القنصل العام البرتغالي يعتمد في ما يزود به بلاده من أخبار على تقارير أخرى تأتيه من شبكة واسعة من المراسلين، ومنهم نوابه في بعض المدن المغربية، وأصدقائه من مغاربة مسلمين ويهود، وبعض رجالات المخزن، والتجار، وممثلي القنصليات الأوروبية الأخرى. وبالإضافة إلى الأخبار المؤكدة واليقينية، فإن المراسلات تتضمن أيضاً الإشاعات والأخبار غير المؤكدة، وهي أيضاً تفيد الباحث لأنها تعبر عن الجو السائد في البلاد، وعن التأثير النفسي الذي يحدثه الوباء أو المجاعة في الناس.

ولكي تتضح هذه الخصائص والمزايا أكثر، ارتأيت أن أعرض مجموعة من النصوص المختارة من أرشيف القنصلية البرتغالية بطنجة، في ملحق بهذا البحث، وسأكتفي بتعريف مختصر بالإفادات المتضمنة فيها، تاركا للقارئ أن يعود بنفسه إليها ليطلع عليها بالتفصيل.

I - الإفادات المتعلقة بالمجاعات والجفاف

اهتم البرتغاليون -وربما أكثر من غيرهم من الدول الأوروبية- بالأوضاع الفلاحية في المغرب، وبأحوال المناخ من تساقطات وجفاف، وكل ما من شأنه أن يؤثر على الإنتاج الفلاحي، ويرجع هذا الاهتمام إلى أن دولة البرتغال -كما هو معروف- لم تكن تنتج ما يكفيها من الحبوب، ولم يكن ما تنتجه من مواش كافياً لها، وخاصة خلال الأزمات السياسية التي مرت بها، ولذلك كانت تعتمد اعتماداً كبيراً على ما توفره لها الدولة المغربية. ولذلك أيضاً، حفلت تقارير القنصل البرتغالي بمعلومات عن حالة المحاصيل الزراعية وأثمانها وحالة القطيع المغربي وأثمان رؤوس المواشي، سواء في أوقات الشدة أو الرخاء. ويمكن أن نعاين ذلك من

خلال الإطلاع على الوثائق الملحقة¹. كما أن بعض هذه الوثائق تتضمن تفسيرات لما تتعرض له البلاد من مجاعات، مثل الجراد أو الجفاف أو الوباء².

وتتضمن التقارير القنصلية أيضا معلومات عن مظاهر الجفاف والمجاعة، وما وصلت إليه أحوال المغاربة خلال أزمة المجاعة، ويكفي الإشارة إلى ما ذكره القنصل عن اضطراب الناس إلى أكل جذور النباتات والجيف ومختلف أنواع الأزبال، وموت الناس جوعا في الشوارع³، وحالة القلق التي عمت المغاربة الذين تعودوا — حسب رأيه — على الإنتاج الوفير والرخيص⁴، واستغلال الباشوات لهذه الوضعية للمطالبة لأنفسهم بهدايا ورشاوى مقابل السماح بتصدير الحبوب التي أمر السلطان بتصديرها⁵، ووفود الناس من المناطق الداخلية إلى المدن الساحلية التي استفادت من واردات الحبوب⁶، كما تطرقت بعض التقارير إلى نتائج المجاعات، ومن بينها مثلا تسببها في بعض الأمراض ومن بينها الحمى الخبيثة⁷، وعدم تمكن الناس من الاستفادة من سقوط الأمطار بسبب موت الماشية وقلة البذور⁸.

II - الإشارات المتعلقة بالأوبئة

تتضمن التقارير أيضا العديد من المعطيات المتعلقة بالأوبئة التي تعرض لها المغرب. وقد كان الاهتمام الأوربي بالموضوع نابعا من قلق الدول الأوروبية وتخوفها من انتقال العدوى إليها عن طريق المغرب من خلال الاتصال والاحتكاك المباشر في السفن والموانئ بين الرعايا الأوروبيين والمغاربة، ومن خلال ما تحدثه الأوبئة من انقطاع لكل الاتصالات وخاصة منها التجارية. وكان الاهتمام البرتغالي بهذه المسألة أيضا كبيرا نظرا للقرب الجغرافي ولتردد الكثير من البرتغاليين على

1- انظر الوثائق المرفقة أرقام 1 و 2 و 3 و 16 و 17.

2- انظر الوثائق المرفقة أرقام: 1 و 9 و 10 و 16 و 17.

3- الملحق 19.

4- الملحق: 1 و 16 و 18.

5- الملحق 2.

6- الملحق 16 و 17 و 18.

7- الملحق 19، والرسائل المؤرخة بـ 31 يناير و 1 مارس و 15 أكتوبر و 4 يونيو 1826 ضمن الملحق

23.

8- الملحق 19.

المغرب بهدف التجارة أو الصيد البحري، أو بهدف الاستفادة من الخدمات التي كانت تقدمها المراسي المغربية للأسطول البرتغالي. وتتنوع المعلومات والإفادات المتعلقة بالأوبئة والطواعين في التقارير البرتغالية. ويمكن أن نجملها في المواضيع التالية :

1 - أسباب الأوبئة وعوامل انتشارها : وتفيدنا التقارير القنصلية بمعلومات مهمة في هذا الشأن حيث نعرف مثلاً أن وباء سنة 1799 انتقل إلى مراكش بواسطة جيش السلطان مولاي سليمان الذي نقله معه، وكذلك بواسطة السلع التي سبقت الجيش الذي ذهب من فاس إلى مراكش⁹. وترجع تقارير أخرى سبب انتشار الوباء إلى الفقر وعدم توخي الاحتياط من قبل المغاربة، وعدم تبليغهم عنه وعدم قبولهم للعلاج¹⁰. كما ترجعه تقارير أخرى إلى استعمال المغاربة لملايس المرضى، والعيش في منازلهم بدون أدنى مراعاة لشروط النظافة¹¹. بينما ترجح تقارير أخرى أن تكون مخلفات المجاعة، وخاصة منها التفعنات الناتجة عن الوفيات الكثيرة وراء الإصابة ببعض الأوبئة مثل داء الحمى الخبيثة¹².

2 - أعراض الوباء ومظاهره : ومن أمثلة ذلك ما جاء في أحد التقارير، وفيه يذكر القنصل أن أعراض الوباء كما تمت معاينتها هي : آلام في الرأس وحمى تتبعها بعض البقع السوداء التي تظهر على الجسم قبل وبعد وفاة المصاب. ولا تتعدى مدة الإصابة 24 ساعة من الوقت الذي تظهر فيه بعض الدمامل الصغيرة إلى حدوث الوفاة. ويبلغ الألم في هذا المرض الوبيل درجة شديدة، أكثر شدة من الطاعون العادي¹³.

3 - كيفية التعامل مع الوباء : تفيدنا الوثائق البرتغالية في التعرف على بعض أشكال تعامل المغاربة مع الوباء. فمنهم من اعتبر الوباء قضاء من الله وربما عقاباً إلهياً. ومعظمهم كان يرفض قبول العلاج، ولا يبلغ عن إصابته بالمرض، مما يسمح بانتشاره أكثر¹⁴، كما أن السلطان نفسه اضطر إلى الهروب من الوباء في فاس وانتقل بجيشه إلى

⁹ - الملحقان 5 و 9.

¹⁰ - الملحق 5 و 14 و 15.

¹¹ - الملحق 15.

¹² - الملحق 19، والرسائل المؤرخة ب 31 يناير و 1 مارس و 5 ماي و 24 يونيو 1826 في الملحق 23.

¹³ - الملحق 6.

¹⁴ - الملحق 5 و 14 و 15.

مراكش¹⁵، ولم يفلح هذا الهروب في نجاه العديد من الأعيان والأمراء الذين رافقوا السلطان، حيث مات منهم وزيره ابن عثمان والأمراء مولاي الطيب وهشام والحسين وغيرهم من رجالات المخزن الكبار¹⁶. وقد أدى الخوف من التعرض للإصابة بالوباء إلى تعطل وتجميد المعاملات التجارية وفراغ الأسواق بسبب منع الناس القادمين من المناطق الموبوءة من المجيء إلى المناطق غير الموبوءة¹⁷. وتباين الموقف من الكرنطينة ما بين مؤيد ومعارض، ولكن بعض العلماء، ومنهم عالم طنجة الأكبر أصدر فتوى تجيز إقامة الكرنطينة على كل الراغبين في دخول المدينة¹⁸. وتأثرت المبادلات مع الخارج، لأن القناصل منعوا أي اتصال بين المراكب والسكان المغاربة في البر¹⁹، وأحدث الوباء رعبا كبيرا في إسبانيا والدول المجاورة، واضطربت لذلك المعاملات والمراسلات²⁰.

4 - المعطيات الإحصائية : تقدم الوثائق البرتغالية بعض الأرقام عن ضحايا الوباء، وهي أرقام معبرة على الرغم من التحفظ الذي يمكن أن نبديه حيالها، والذي أبداه القنصل نفسه، بسبب افتقارها إلى الدقة واعتمادها على التقدير وعلى ما يقدمه المغاربة أنفسهم. ومن أمثلة ذلك ما ذكره القنصل من أن الوفيات بلغت في مراكش ما يزيد على 600 من الأعيان²¹، وأن الوفيات بلغت في بعض الأيام أكثر من 2000 حالة وفاة، لدرجة أن بعض الجثث لم تجد من يدفنها فافترستها الكلاب²². ومن الأرقام التي أوردتها التقارير : 150 من الوفيات يوميا في أسفي خلال الوباء، و100 وفاة يوميا بالصويرة ووفاة 3000 جندي من أصل 7000 جندي الذين رافقوا مولاي سليمان إلى مراكش²³. وما تدوول من أخبار بين الناس عن حجم الخسائر البشرية التي كان يقدرها المغاربة بثلاث سكان المدن²⁴.

15 - الملحق 7.

16 - الملحقان 9 و 10.

17 - الملحق 7.

18 - نفسه.

19 - الملحقان 6 و 8.

20 - الملحق 9.

21 - نفسه.

22 - الملحق 10.

23 - نفسه.

24 - الملحق 15.

5 - الاهتمام الأوربي بالصحة في المغرب : يتضح من المراسلات القنصلية أن الأوربيين بصفة عامة والبرتغاليين بصفة خاصة أصبحوا يبدون اهتماما متزايدا بالأحوال الصحية في المغرب، فالقنصل البرتغالي كان يبعث رسائل شهرية إلى كاتب دولته في الصحة يخبره بأحوال الصحة العامة بالمغرب²⁵. وتمكن القناصل من تأسيس المجلس الصحي الذي أصبح يفرض إقامة الكرنطينة على كل السفن القادمة إلى المغرب لتجنب دخول الوباء إلى المدينة وبالتالي إلى المغرب²⁶، وكان القناصل يتخذون بعض التدابير الوقائية لمنع الوباء من الوصول إلى المغرب عن طريق الاتصال بقناصل دولهم لفرض الكرنطينة على المسافرين القادمين إلى المغرب في مراسي الانطلاق قبل القدوم إلى المغرب²⁷.

يتضح من هذا الاستعراض الموجز لبعض ما يتضمنه الأرشيف البرتغالي بقنصلية طنجة من إفادات ومعلومات، أن هذا النوع من الوثائق يمكنه أن يقدم خدمات كبيرة للباحثين. إلا أن فائدته تظل مع ذلك ناقصة ما لم تدعم بالرجوع إلى وثائق قنصليات الدول الأوربية الأخرى ومقارنتها بما جاء في الوثائق البرتغالية بقصد سد الثغرات وتكملة النقص وتصحيح الأخطاء، وكذلك بالرجوع إلى المصادر والوثائق المغربية التي لا تخلو بدورها من أهمية في هذا الموضوع.

الملحق الوثائقي :

- 1 - "... عندما كنت بفاس، عاينت هنالك أن الثيران تباع بأثمان تصل إلى 25 بسيطة لاستهلاك تلك العاصمة. وهي أثمان تقلق هؤلاء الناس. وسببها راجع بالأساس إلى أن الجراد حل بتلك المناطق وأتى على المراعي، وهو يهدد بهلاك الماشية قبل أن تتمكن محاصيل الخريف من إنقاذها..."²⁸.

²⁵ - الملحق 23.

²⁶ - الملاحق 20 و 21 و 22.

²⁷ - الملحق 20.

²⁸ - من رسالة كولاصو إلى وزير خارجية البرتغال كوتينيو، من طنجة بتاريخ 19 يونيو 1798، أنظرها في : عثمان المنصوري، العلاقات المغربية البرتغالية (1790-1844)، الجزء 1 من الوثائق المعربة الملحقة بالطرحة، المراسلة رقم 16، ص. 186، وسنكتفي فيما يأتي من الوثائق بالإحالة إلى رقم المراسلة والصفحة.

2 - "... تأكد لي عن طريق الرسائل التي توصلت بها من تجار الجديدة وأسفي، أن القمح القليل المعد للشراء يوجد بثمن غال جدا، ويعود ذلك إلى المحاصيل الهزيلة التي عمت تلك المناطق. ونتج عن ذلك أن الباشوات استغلوا هذا المبرر للحصول على الهدايا لأنفسهم..."²⁹.

3 - "... الشيء المؤكد، هو أن نقصا شديدا في الأقوات يعم كل المملكة. في الصورة يوجد كل شيء أغلى من هنا [طنجة]، والأمر أكثر قليلا في كل جهات البلاد، الشيء الذي يؤثر جدا على هؤلاء الناس المعتادين على الإنتاج الوفير والرخيص باستمرار..."³⁰.

4 - "... مع عودة الخادم والكثير من الناس الذين رافقوه، حصلت على معلومات حول المرض الموجود بفاس. ما يمكن تأكيده هو أنه يموت بالفعل من 30 إلى 50 شخصا يوميا، وأن المغاربة لا يعتبرونه مرضا طاعونيا. بينما يؤكد اليهود أنه الطاعون. كيفما كان الأمر، فالملاحظ لدى الكثير من السكان بتلك العاصمة أن أي مرض خبيث مثل الحمى والتعفنات يمكن أن يؤدي أيضا إلى هذا العدد من الوفيات اليومية إذا بقي بدون علاج أو لم تتوفر إمكانيات العلاج منه. وفوق هذا هناك اتصال مستمر بين فاس ومكناس، ولا يظهر أن المرض انتقل إلى هذه العاصمة الأخيرة أو انتشر فيها، وقد تأكد أنه لا توجد فيها حالات مرضية مشابهة. وعلى الرغم من كل هذا، فنحن ننتظر أخبارا دقيقة طلبتها هيئة القناصل من القنصل العام الإسباني [الموجود بفاس] لتكوين فكرة حقيقية عن هذا المرض غير المؤكد، وسأبلغكم حينئذ بتقرير مفصل عن الموضوع..."³¹.

5 - "... أصبح مؤكدا أن المرض المعدي الذي انتشر منذ شهور في فاس، وفي بعض القبائل المجاورة هو الطاعون. وسمع أنه يعطي في مكناس مؤشرات على أنه أعراض حمى عادية.

²⁹- رسالة كولا صو إلى نفس الوزير من طنجة بتاريخ 20 غشت 1798، المراسلة 19، ص. 188 و 189.

³⁰- رسالة إلى نفس الوزير من طنجة بتاريخ 30 شتنبر 1798، المراسلة 22، ص. 194.

³¹- رسالة إلى نفس الوزير، من طنجة بتاريخ 27 فبراير 1799، المراسلة 6، ص. 221.

بعد وضوح هذه الحقيقة، اتخذ الناس بعض الاحتياطات المرتبطة بالاتصالات، لكن إقناع العامة بالالتزام بهذه الاحتياطات صعب للغاية. والأغلبية لا يصرحون بشيء، عندما يصابون بالعدوى، كما هو الشأن في تطوان وهنا ومنطقة الغرب البعيدة عن هنا بثلاثة أو أربعة أيام. لكن هذه المنطقة المعتدلة تستفيد من مناخ طيب مهيمن على هذا الجزء من المملكة، ونتمنى من الله أن لا يصل هذا المرض الوبيل إلينا.

يخشى مع ذلك أن يكون الأمير مولاي الطيب قد أدخل الوباء مع فرقه العسكرية إلى الرباط. وهناك من يقول إنه ظهر فعلا بتلك المدينة نفس النوع من الوباء. وسيصبح المشكل أكثر سوءا إذا خرج السلطان فعلا مع قسم من جيشه عبر نفس الطريق إلى مراكش ليوصل الوباء إلى تلك المناطق من المملكة. المؤكد هو أن الظروف جد سيئة لدرجة لا يستهان بها...³².

6 - "... يوم 28 أبريل صباحا، وصلت أيضا فرقاطة صاحبة الجلالة "أندورنيا". وبمجرد أن رست بعثت قاربا إلى البر. وبدون أن ينزل منه أحد، تم إعلامه بكل العلامات الخاصة بالفرقاطة الطرابلسية، وبالوباء المعدي الموجود داخل هذه البلاد، وبعدها بقليل، عادت الفرقاطة إلى جبل طارق. مازال وباء الطاعون مستمرا بفاس ومكناس وبعض المناطق المجاورة وفي الرباط. والعلامات هي دائما : آلام في الرأس، وحمى تتبعها بعض البقع السوداء التي تظهر على الجسم قبل أو بعد وفاة المصاب. ولا تتعدى مدة الإصابة 24 ساعة من الوقت الذي تظهر فيه بعض الدامل الصغيرة إلى حدوث الوفاة. ويبلغ الألم في هذا المرض الوبيل درجة شديدة، أكثر شدة من الطاعون العادي...³³.

7 - "... ليس هناك أدنى شك في أن السلطان أسرع في الانتقال إلى تلك المناطق، إما بسبب الغليان الذي بدأت ملامحه تتشكل في مناطق عبدة ودكالة، أو من أجل تجنب عدوى وباء الطاعون الذي ما زال يفتك فتكا ذريعا ويلحق أضرارا فظيعة بالناس في فاس ومكناس وغيرها من المناطق التي ظهر فيها. علم من رسالة من الرباط مؤرخة ب 20 ماي أنه

³² - رسالة إلى نفس الوزير، من طنجة بتاريخ 18 أبريل 1799، المراسلة 8، ص. 223.

³³ - رسالة إلى نفس الوزير، من طنجة بتاريخ 5 ماي 1799، المراسلة 9، ص. 225.

ارتفعت هناك إصابات الطاعون، ووصلت يومياً حتى 150 من الوفيات. نفس الرسالة تقول إن العدوى انتقلت إلى مدينة سلا المجاورة، ثم -عبر الشاطئ- نحو مناطق الجنوب إلى غاية أسفي. وهناك احتمال كبير بأن يكون جيش السلطان مصاباً بالعدوى، وأن يكون قد نقلها إلى كل الجهات التي مر بها، حتى وصوله إلى مراكش والجهات القريبة منها [...] على الرغم من أن سكان البلاد لا يتخذون الاحتياطات الضرورية التي تتخذ في هذه الظروف الخطيرة، يلاحظ مع ذلك اتخاذ نوع من الكرنطينة في بعض المناطق المشتبه بإصابتها [...] تبين من رسائل من جبل طارق، أن حكومته منعت كل اتصال مع هذه المملكة. هذا يعني أن الوباء وصل إلى العرائش، ومنها إلى هذه المدن الإسبانية بواسطة الرعايا الذين يتصلون بهذه المدينة بدون الإلمام بأنها مصابة بالعدوى [...] بتأثير من أكبر عالم بهذه المدينة، سيتم اتخاذ إجراءات فعالة بعدم قبول أي شخص من داخل البلد بدون أن يخضع للكرنطينة خارج المدينة [...] هذا الإجراء قد يحررنا لبعض الوقت من خطر الطاعون..."³⁴.

8 - "... وباء الطاعون مستمر في إلحاق خسائر مهولة بالمناطق التي يدخلها [...] دخل مؤخراً إلى القصر الكبير بقوة كبيرة، ولا نعرف هل دخل العرائش أم لا [...] ما زلنا في قلق مستمر، ويساورنا بعض الذعر. في الرباط يستمر الوباء بقوة لا تتصور [...] كتب إلي الموظف الذي يعمل معي في العرائش بتاريخ 4 يونيو أنه ظهر على بعد قليل من ذلك الميناء 25 مركباً للصيد برفقة سفينة عسكرية. دخل أحد هذه المراكب إلى الداخل قبله أمراً [...] يتضمن عدم السماح بأي شكل من الأشكال بإجراء اتصالات مع البر، ولا حمل الفريشك أو أي شيء زائد على الماء الذي يكفيهم لسفرهم، محذراً إياهم من أن يعودوا إلى هناك مرة ثانية. وكنت أصدرت هذا الأمر [...] لتأكيد أنه الوسيلة الوحيدة لمنع الإصابة بذلك الطاعون الذي يخشى وصوله من ساعة لأخرى..."³⁵.

9 - "... ليس هناك أدنى شك في أن الوضعية المؤلمة التي تئن تحت وطأتها هذه المملكة بسبب الطاعون قد أحدثت رعباً بإسبانيا لدرجة أن المراسلات التي تتم بين طنجة

³⁴-رسالة إلى نفس الوزير، من طنجة بتاريخ 27 ماي 1799، المراسلة 11، ص. 227.

³⁵-رسالة إلى نفس الوزير، من طنجة بتاريخ 8 يونيو 1799، المراسلة 12، ص. 229.

وطريقة فقدت نظامها وطريقها، ولدرجة أنها تضطر للبقاء في قادس، مما نتج عنه أنني أجد صعوبة في إرسال الرسائل سواء منها العادية أو الرسمية [...] انتشر الطاعون بكل المملكة. نحن فقط في طنجة، وكذلك تطوان وأصيلا وبعض القبائل، مازلنا برحمة الله بمنأى عن هذا الوباء. كل موانئ البحر إلى غاية الصويرة، تعرضت وما تزال لخسائر كبيرة. في العاصمة مراكش، حصد الوباء عددا كبيرا من الأرواح. حوالي 600 شخص من الأعيان الذين رافقوا السلطان، ومن بينهم وزيره الأكبر ابن عثمان. كان من ضحاياه العدول والأعيان من حاشية الأمير مولاي الطيب. يقال إن نفس الأمير والسلطانين السابقين مولاي هشام ومولاي حسين فقدوا حياتهم أيضا. وحول هذا الخبر الأخير، هناك علامات تفيد صحته، بينما ما زال الخبر المتعلق بمولاي الطيب ينقصه التأكيد [...] وصل مولاي سليمان سالما إلى مكناس التي يقال بأنه تم فيها القضاء على الوباء. لكن الوباء قد يعود كما تمت ملاحظته عدة مرات، حيث يحدث تدهور كامل، وبعده مباشرة يقضى تماما على الوباء، لكن يقع بعد ذلك تطور سريع، ويعود الوباء أكثر قوة من ذي قبل. لا يمكن الاطمئنان التام على البقاء بمنجاة من عودة جديدة للمرض. وهذا هو الذي يثير قلق كل الناس. ولذلك فهم لا يعطون مصداقية لما يروج عند العامة من أن الإصابات بالطاعون هي في انخفاض مستمر من مراكش إلى هذه المناطق [...] على الرغم من أن محصول الحبوب هذه السنة كان وافرا على العموم، فإن ظروف الطاعون تضع في خطر كبير من يرغب في الاستفادة من تصديره والاتجار فيه...³⁶.

10 - "... لم يبق شك الآن في أن الأمراء الثلاثة الطيب وهشام وحسين ماتوا في مراكش، وأن ما يحدثه الطاعون من خسائر في تلك العاصمة لا يتصور. إذا أعطينا مصداقية للأخبار العامة والرسائل الخاصة، هناك أيام مات فيها أزيد من 2000 شخص. وتعرضت بعض الجثث التي لم تجد من يدفنها للافتراس من الكلاب. عدد من المناطق تعرضت لنفس الدمار، وحصد الموت حتى قطعان الماشية وغيرها من المخلوقات التي لم تجد من يسقيها الماء. مناطق دكالة وعبدة هي الأكثر تعرضا لهذا الوباء وتضررا منه [...] في الحقيقة، عم الوباء كل البلاد. حسب بعض الأخبار، وصلت الوفيات في أسفي إلى 150 ضحية في اليوم،

³⁶- رسالة إلى نفس الوزير، من طنجة بتاريخ 5 غشت 1799، المراسلة 13، ص. 233.

وفي الصورة، في نهاية الشهر الماضي إلى قرابة مائة [...] وكما يلاحظ عموماً، هناك انخفاض يكاد يكون عاماً في الإصابات، لكنه سرعان ما يعود إلى الظهور بعنف أقوى من السابق [...] يقال إن عدد الإصابات أخذ في التضاؤل يوماً عن يوم، وأن المصابين مؤخراً سبق أن تعرضوا للوباء في المرة الأولى والثانية [...] تأكد أن الطاعون دخل إلى مراكش وغيرها من مناطق الجنوب، مع البضائع التي حملت من فاس أياماً قبل مجيء الجنود. من بين 7000 رجل من الجنود الفعليين الذين خرجوا مع السلطان من مكناس، مات هناك أكثر من 3000. في النهاية، الفقر وعدم الاحتياط هما السببان الرئيسيان في إصابة مثل هذا العدد الكبير...³⁷.

11 - "... تؤكد الأخبار العامة أنه قد قضي على الطاعون في القسم الأكبر من البلاد، وأن المنطقة التي يوجد فيها أكثر هي المنطقة الموجودة بين العرائش وطنجة، لكن بعدد من الإصابات يتناقص يوماً بعد يوم. وعلى هذا الأساس سيصل إلينا قريباً جداً. يقال في بعض المرات إنه موجود داخل المدينة. لكن المؤكد هو أن هذا الخوف راجع إلى الفرع الشديد الذي يعاني منه هؤلاء الناس أكثر مما هو في الواقع، لإدخالهم في الاعتبار آثاره الفظيعة، وما يحدثه من دمار في المناطق التي يدخلها..."³⁸.

12 - "... تأكد لي من الرسائل الأخيرة القادمة من الصورة وأسفي والمؤرخة بنهاية شهر يناير الماضي، أنه ما زالت بتلك المناطق بعض الإصابات بالطاعون، وأنه في تناقص يوماً بعد يوم..."³⁹.

13 - "... أما فيما يخص الصحة العامة بهذا البلد، فإن آخر الأخبار المحصل عليها من الداخل إيجابية. علمت من رسالة بتاريخ 20 من الشهر الماضي أنه لم تقع وفيات بمدينة أسفي، وبوجود إصابات في الصورة، ولكنها طفيفة [...] يقال أيضاً إن الوباء ظهر من جديد في مراكش، لكن عدداً من الناس وصلوا من تلك المناطق يؤكدون أنه لم تقع حالياً

³⁷ - رسالة إلى نفس الوزير، من طنجة بتاريخ 13 غشت 1799، المراسلة 14، ص. 234.

³⁸ - رسالة إلى نفس الوزير، من طنجة بتاريخ 7 فبراير 1800، المراسلة 1، ص. 238.

³⁹ - رسالة إلى نفس الوزير، من طنجة بتاريخ 18 فبراير 1800، المراسلة 3 - ص. 242.

أية إصابة. كما أكد بعض الناس القادمين مؤخرا من فاس ومكناس أنهم لم يصادفوا منذ خروجهم من المدينتين إلى أن وصلوا إلى مسافة قريبة من طنجة أية إصابات معدية جديدة، مما سمح بالتأكد من خلو هذه المناطق من الداء...⁴⁰.

14 - "... يقولون في الصورة إنها بخير، وأن الوباء في تناقص بمراكش أيضا، ونفس الشيء بشمال هذه المملكة. منذ رسالتي بتاريخ 9 أبريل لم تقع وفيات كثيرة بهذه المدينة. والوفيات اليومية الناتجة عن مختلف الإصابات تتراوح عادة ما بين 4 إلى 6 [...] والعدوى آخذة في التناقص بشكل ظاهر في المناطق المجاورة [...] وعلى العموم قد تحسنت أحوال عدد كبير من المصابين. ولو أن هؤلاء الناس قبلوا العلاجات، لكان من الممكن أن لا تتعدى الوفيات ثلث ما بلغتته..."⁴¹.

15 - "... ما زالت وضعية الصحة العامة على حالها بدون ارتفاع ملحوظ في الإصابات. منذ رسالتي بتاريخ 29 من الشهر الماضي إلى الآن، لم تتجاوز الوفيات اليومية داخل المدينة 15 شخصا من كل أنواع الأمراض، بحيث كان العدد يتراوح على العموم بين 6 و10 وأحيانا 12. لدرجة أنني سمحت لنفسي بإعلام سيادتكم أن عدوى الطاعون ليست بنفس الخطورة التي يخشى من انتقالها إلى سيادتكم، كما هو الشأن في أوبئة طاعون أخرى. يوجد حاليا هنا، منذ وقت طويل، أزيد من 50 هاربا من الثغور الإسبانية، وهم خلال النهار كله يوجدون مختلطين بالمغاربة في الأزقة، يشترون في سوق المدينة حاجياتهم اليومية، ولحد الآن لم نر أيا منهم وقد أصيب بهذا الداء. ولم تسجل إصابات تذكر بين اليهود الذين يتصلون في أغلبهم بالمغاربة، ويدخلون إلى دورهم، والذين يفترض لذلك أن يصابوا أكثر من غيرهم بالطاعون. إن المصابين عادة، هم فقط أولئك الناس الذين يستعملون مباشرة ملابس الموتى الموبوئين، ويعيشون في منازلهم بدون أدنى نظافة. بعضهم يموت، والبعض الآخر يشفى تماما [...] المدن، سواء الكبيرة منها أو الصغيرة مليئة بالناس. لكن يقال إن معظمها فقدت ثلث سكانها. وقد يكون في ذلك بعض التضخيم الناتج عن الذهول

⁴⁰-رسالة إلى نفس الوزير، من طنجة بتاريخ 9 أبريل 1800، المراسلة 4 -ص. 244.

⁴¹-رسالة إلى نفس الوزير، من طنجة بتاريخ 29 أبريل 1800، المراسلة 6 -ص. 246.

الذي أصاب الناس والذي يمكن اعتباره السبب الأصلي للصدى القوي الذي عرفته أخبار الوباء في كل مكان. وأساسا في أوروبا. يضاف إلى ذلك، وجود مبعوثين يعملون على إشاعة أخبار أضخم من الواقع، بدافع من مصالحهم الخاصة...⁴²

16 - "... عم الخراب بسبب الجفاف ونقص الأمطار في السنة الماضية، ومازال الجفاف متواصلا حاليا. ويوجد الجميع في خوف شديد بسبب نقص المحاصيل، وقد ارتفعت أثمان الحبوب بشكل كبير في كل جهات المغرب. وعلى الرغم من أن طنجة استفادت من استيراد بضعة آلاف من فانيقات القمح الرديء، فإن ذلك لم يمنع من ارتفاع ثمنه، حيث وصل حاليا إلى 1400 ريال لكل فانيقة...⁴³.

17 - "... كانت المناطق المجاورة للجديدة في الماضي غنية بجميع أنواع الحبوب التي كانت تصدر إلى الخارج. إلا أن محاصيل هذه السنة، سواء في هذه المنطقة أو أغلب المناطق المغربية الأخرى، ضاعت بسبب عدم سقوط الأمطار، وبالتالي يوجد نقص شديد وغلاء كبير في كل هذه المناطق في ثمن القمح والشعير على الخصوص [...] وعلى الرغم من أن منطقة الغرب كانت أحسن حالا وأنجحت محاصيل في هذه السنة، فإن ثمن القمح ارتفع إلى 14 أوقية للمد (1870 ريالا للفانيقة). ولولا استيراد المغرب للقمح من جبل طارق لفاق ثمنه 20 أوقية...⁴⁴.

18 - "... زاد الخصاص الشديد في الحبوب الذي تعرفه كل أنحاء البلاد من حالة القلق العام، لدرجة أن الكثير من الناس يتوافدون من الأقاليم الداخلية على الموانئ البحرية بحثا عن القوت، ولولا وصول مقادير من القمح من جبل طارق لحسن الحظ، لوصلت المجاعة هنا إلى أوجها...⁴⁵.

⁴²-رسالة إلى نفس الوزير، من طنجة بتاريخ 14 ماي 1800، المراسلة 7 - ص. 247.

⁴³-رسالة كولاصو إلى ماركيز بالميللا وزير الخارجية، طنجة في 8 يناير 1825، المراسلة 1، ص. 372.

⁴⁴-رسالة كولاصو إلى كونت سانتو، من طنجة بتاريخ 2 يوليوز 1825، المراسلة 17، ص. 381.

⁴⁵-رسالة كولاصو إلى نفس الوزير، من طنجة بتاريخ 5 شتبر 1825، المراسلة 21، ص. 383.

19 - "... سقطت أمطار غزيرة عمت كل أنحاء البلاد مما يعطي أملا في الشروع في عملية الحرث. إلا أن العملية لن تكون كبيرة بسبب آثار الجفاف الذي أتى على قسم كبير من المواشي التي افتقرت إلى المراعي في السنوات الماضية، وبسبب الخصاص الشديد في البذور. كل البلاد تقدم منظرا مثيرا للشفقة بفعل الخسائر التي أحدثتها المجاعة التي تعتبر الأكثر خطورة حسب الرقم المهول لضحاياها. لقد ألجأت الناس إلى أكل جذور النباتات والجيف ومختلف أنواع الأزبال. وبلغ الأمر إلى درجة الموت جوعا في الشوارع. وهذه الوضعية الكارثية أدت إلى حدوث تخوف من تعرض البلاد للأوبئة..."⁴⁶.

20 - "... وردت أخبار من حاكم جبل طارق إلى القنصل العام الانجليزي تفيد ظهور وباء الكوليرا بالجزيرة العربية. اجتمعت الهيئة القنصلية المقيمة بطنجة، وضمنها القنصل البرتغالي، التي أوكل إليها السلطان مهمة مراقبة قطاع الصحة العامة وتداولت فيما يجب عمله..."

المرفق : تقرير القناصل :

"في 20 شتنبر 1831، على الساعة الواحدة زوالا، اجتمع القناصل الذين يتكون منهم المجلس الصحي، بطلب من القنصل العام الانجليزي، بدار قنصلية الأراضي المنخفضة، للتداول في أحسن الإجراءات التي يجب اتخاذها لحفظ المغرب من الخطر الذي يمكن أن يتعرض له بمجيء الحجاج العائدين من الجزيرة العربية التي أعلن عن ظهور الكوليرا بها.

بعد مداولات جادة، تقرر أن الوسيلة الأنجع للوصول إلى هذا الهدف المرغوب هي أن يقوم السادة القناصل المكونون للمجلس الصحي، بإرسال رسائل إلى زملائهم في موانئ الإسكندرية وطرابلس وتونس، ويحثوهم على إرغام قباطنة السفن التابعة لدولهم، والتي تحمل الحجاج إلى المغرب، على أن تقوم أولا بقضاء الكرنطينة كاملة في أحد الموانئ التي يوجد فيها محجر صحي، قبل عودتهم.

⁴⁶ - رسالة كولاو إلى نفس الوزير، من طنجة بتاريخ 20 فبراير 1826، المراسلة 2، ص. 390.

لكن بناء على ملاحظة أحد أعضاء المجلس -الذي لم يكن مخولا من دولته بتقديم طلب من هذا النوع إلى زملائه بالمدن المذكورة- تقرر لتأكيد حصول نجاح أفضل لهذه الإجراءات، أن يبعث القناصل إلى حكوماتهم، حتى تبعث هي بالأوامر إلى القناصل الموجودين بالموانئ المذكورة، إذا ارتأت ذلك مناسبا.

أما فيما يخص منع الحجاج من العودة عن طريق البر، فإن المجلس مقتنع بأن الخطوات التي يمكن أن يقوم بها في هذا الشأن لدى السلطات المغربية، لن تكون لها أية نتيجة، لأن السلطان نفسه لو أراد أن يقوم بإجراءات لمنع الحجاج من الدخول برا أو بحرا لما استطاع، ولأن الديانة المحمدية تمنع ذلك. أما فيما يخص طلب قنصل جبل طارق إلى قنصل بريطانيا بضبط عدد الحجاج الذين يعودون سنويا إلى المغرب برا، فالمجلس الصحي يرى أن تلبية هذا الطلب مستحيلة، لأن الحكومة الفرنسية نفسها تجهل ذلك.

توقيع التقرير من لدن القنصل العام المداوم [قنصل الشهر] المكلف بالمصلحة الصحية، قنصل هولندا فريسينيت⁴⁷.

21 - "... في يوم 21 من الشهر الماضي، رست بميناء طنجة بريك حربية فرنسية تدعى (Cometa) قادمة من وهران وعلى متنها موظف رسمي يدعى (De Segur Dupeyron) يعمل في مصلحة الصحة العامة، ومكلف بإقرار تنظيمات جديدة في هذه المصلحة بفرنسا، ويقوم حاليا بزيارة كل هذه المؤسسات في البحر الأبيض المتوسط وسواحل إفريقيا، حتى يجمع كل التوضيحات والملاحظات من أجل إصدار قوانين جديدة باتفاق مع دول أخرى لتحسين ظروف التجارة، ومراعاة الاحتياطات اللازمة لضمان الصحة العامة. قدمه الباشا إلى القناصل بصفته مكلفا من السلطان بتفتيش مرافق الصحة العامة، وتلقى منهم كل المعلومات التي يريد عن الطاعون، وأخبروه بالإجراءات المتخذة ضد الطاعون الذي يأتي

⁴⁷ -رسالة كولاصوإلى فيكونت ساطارين، من طنجة في 22 شتبر 1831، المراسلة 17، ص. 470 .

عادة مع ركاب الحج من مكة أو الجزائر، وعن إجراءات الكرنطينة التي تقام على السفن القادمة من أجل التجارة...⁴⁸.

22 - "اقترح السلطان من أجل تفادي الوضعية المزرية التي يتعرض لها الحجاج المغاربة الذين تفرض عليهم الإقامة الجبرية لمدة أربعين يوماً في انتظار التأكد من سلامتهم من الوباء، أن يتم تشييد مكان لائق في طنجة، وأن توفر لهم ظروف جيدة للإقامة، على أن تبقى مهمة الرعاية الصحية بيد القناصل الذين عليهم أن يختاروا هذا المكان. وقد جمع الباشا القناصل وأخبرهم بهذا الاقتراح. وقد ارتأى القناصل أنه ليس في هذه المحاجر الصحية ما يضر الحجاج، ولكنهم مع ذلك لا يمانعون في تلبية طلب السلطان"⁴⁹.

23 - رسائل القنصل البرتغالي إلى سكرتير إدارة الصحة العمومية بالبرتغال السيد جواكين شافبي دا سيلفا، وكلها عن أحوال الصحة العامة بالمغرب.

أ- رسائل سنة 1824 : كان القنصل يبعث رسائل شهرية، توضح كل ما يطرأ على أحوال الصحة بالمغرب. ابتدأت هذه المراسلات من شهر فبراير بطلب من وزير الخارجية البرتغالي. وفي هذه السنة أرسل 11 رسالة تتضمن كلها إحدى العبارتين التاليتين : "يسرني أن أبلغكم أنه، منذ رسالتي السابقة المؤرخة ب... لم يطرأ أي جديد على أحوال الصحة العامة في كل هذه الإمبراطورية المغربية... "أو"... إن الصحة العمومية في هذه الإمبراطورية توجد في أحسن حال، مثلما كانت عليه في رسالتي السابقة إليكم بتاريخ..."⁵⁰

ب- رسائل سنة 1825 : 12 رسالة، وتتضمن نفس العبارة : الحالة الصحية بالإمبراطورية المغربية جيدة، ولم تسجل فيها أية حالة وباء⁵¹.

⁴⁸ - رسالة كولاصو إلى كونت فيلاريال، من طنجة في 5 شتبر 1836، المراسلة 16، ص. 505.

⁴⁹ - رسالة كولاصو إلى فيكونت بانديرا، طنجة في 23 دجنبر 1538، المراسلة 8، ص 521.

⁵⁰ - المنصوري، العلاقات، م. س. أرشيف القنصلية البرتغالية بطنجة، الجزء الثاني، ص 363.

⁵¹ - نفسه، ص. 387.

ج- رسائل سنة 1826 :

- رسالة بتاريخ 31 يناير : "... منذ الرسالة الأخيرة، لم يقع ما يفيد شبهة وقوع وباء ما، ولكن الوفيات الناتجة عن المجاعة كبيرة جدا لدرجة يخشى معها أن تتسبب في حدوث وباء ما، خاصة أن الجوع دفع بالناس إلى أكل جذور النباتات والجيف ... "52.

- رسالة بتاريخ 1 مارس : "... تزايد عدد المصابين بالحمى الخبيثة بهذه المدينة، وفي تطوان يعانون من نفس المرض، وكذلك الشأن في بعض المدن المغربية الأخرى. لكن هذا المرض لم يتخذ لحد الآن شكل وباء معد ... "53.

- رسالة بتاريخ 15 أكتوبر : "... في هذا الشهر أرسلت حكومة جبل طارق مبعوثا طبيا لفحص الأمراض التي عوينت هنا. وفي اليوم التالي، صرح أنه من الصعب تكوين فكرة محددة عن هذا المرض، هل هو التيفوئيد أو حمى شديدة ... "54.

- رسالة بتاريخ 5 ماي : تتضمن تأكيدا على أن مرض الحمى الخبيثة موجود في طنجة وتطوان وبعض المدن المغربية الأخرى، كما سبق له أن أخبره في مراسلة سابقة، وأن القناصل يوجدون بمنجاة منه55.

- رسالة بتاريخ 24 يونيو : "... حالات الحمى الخبيثة التي ظهرت هنا، هي في طريق أن يقضى عليها بشكل نهائي. أما بالنسبة لداخل البلاد، فالأخبار الواصلة عن الصحة العامة بهذه الإمبراطورية إيجابية أيضا ... "56.

د- رسائل سنة 1827 : 12 رسالة، تفيد كلها أن الصحة العامة بالمغرب بخير، وأنه لم يقع أي تطور سلبي أو أية إصابة بوباء أو غيره57.

52- نفسه، ص. 401.

53- نفسه، نفس الصفحة.

54- نفسه، نفس الصفحة.

55- نفسه، ص. 402.

56- نفسه، نفس الصفحة.

57- نفسه، ص. 421.

